يوسف الشايب *

المخرجون الجدد في إسرائيل .. كشف المستور (القسم الخامس والأخير)

اتهم المخرج السينمائي الإسرائيلي المتوج في مهرجان برلين بدورته الأخيرة، أودي ألوني، الحكومة الإسرائيلية بالفاشية، وأطلق على إسرائيل اسم «ديمقراطية البيض».أثارت تصريحات ألوني ضجة في الأوساط الثقافية الغربية عامة والإسرائيلية بوجه خاص.. بل انه استشهد بإضراب الصحفي الفلسطيني محمد القيق عن الطعام، ليؤكد على غياب أي حقوق للأقليات غير اليهودية في إسرائيل.. وقال ألوني: «عندما أصبحت إسرائيل فاشية وأصبح تنظيم الدولة فاشيًا، أردنا أن نظهر أننا قادرون على إيجاد نوع مميز من المقاومة، وانضممنا إلى بعضنا لنعطي أفضل ما عندنا».[1]

عبرهذا النبأ المقتضب، رأيت أن أبدأ بوضع اللمسات الأخيرة على ملف «المخرجون الجدد في إسرائيل.. كشف المستور»، الذي يصل إلى نهايته مع هذا الجزء الخامس، بعد أربعة أجزاء نشرت تباعاً في فصلية «قضايا إسرائيليّة»، على أمل أن تكوّن هذه الأجزاء الخمسة نواة كتاب متخصص حول الموضوع، يضيف إلى هذا المجال الكثير مما لم ينشر، لعلّه، حينها، يغطي، ولو شيئاً يسيراً، من الفراغ في المكتبة العربية. وقد حاولت في الأجزاء المذكورة دراسة زاوية محددة في السينما الإسرائيلية، تتعلق بتلك المناهضة للرواية الصهيونية، أو على الأقل تطرح تساؤلات لم تكن مطروقة بخصوصها، يصل بعضها إلى انتقاد سياسات الاحتلال، والانتصار بدرجات متفاوتة للحقوق الفلسطينية التي ظل مسكوتاً عنها سينمائياً، حتى سبعينيات القرن الماضي، إلى حين إنتاج وعرض فيلم «خربة خزعة» للمخرج الإسرائيلي رام ليفي، كما أشرت في القسم الثاني من هذه الدراسة.

* صحافي وناقد سينمائي فلسطيني.

«مفرق ٤٨»

فاز فيلم ألوني «مفرق ٤٨» بجائزة الجمهور في مهرجان برلين السينمائي الدولي هذا العام، وهو من الأفلام الإسرائيلية النادرة التي تتناول معاناة الباقين في أرضهم، أي «فلسطينيي الـ٤٨»، من منظورهم هم، عبر حكاية الشاب كريم (تامر نفار)، وهو مغني «راب» في فرقة «دام» الفلسطينية الشهيرة في الداخل، يطمح للغناء في الملاهي الإسرائيلية، لكنه يصطدم بسياسة التمييز العنصري التي تحول دون تحقيقه لهذا الحلم لكونه فلسطينياً داخل إسرائيل التي تسعى حكومتها الحالية، التي يعتبرها البعض الأكثر تطرفاً في التاريخ الإسرائيلي، إلى انتزاع اعتراف فلسطيني بـ«يهودية الدولة».

يتميز فيلم «مفرق ٤٨» ليس بجدة موضوعه فحسب، وإنما بعمق التناول على مستوى تحريك الشخصيات، والسرد الدرامي للمخرج الإسرائيلي الأميركي، فهو واحد من الأفلام التي تأسر مشاهديها حد الإبهار، فمن خلال شخصية كريم وعائلته وأصدقاؤه، يسلط الفيلم الضوء على الواقع المأساوي لفلسطينيي ١٩٤٨، عبر رحلة فيلمية ثلاثية الأبعاد، أولها تفضح سياسات حكومة الاحتلال العنصرية ضد الفلسطينيين من «مواطنيها»، وما يعايشونه يومياً من قهر وظلم وتهميش، وثانيها يغوص في أعماق المشاكل الداخلية للمجتمع أو المجتمعات الفلسطينية في إسرائيل من عنف، ومخدرات، وبطالة، وسطوة العقلية الذكورية، وغيرها، في حين يرحل بنا البعد الثالث بتركيباته الدرامية نحو علاقة عاطفيّة يؤنسن من خلالها الفلسطيني في إسرائيل، ونعيش تفاصيلها مع كريم ومحبوبته الطالبة الجامعية منار (سمر قبطي).

صانع الفيلم الذي فاز لاحقاً بجائزة مهرجان «تروبيكانا» في نيويورك لهذا العام أيضاً، لم يكتف بانتقاد حكومة نتنياهو وسياساتها الفاشية، بل انتقد ألمانيا، ومستشارتها أنجيلا ميركل، بسبب استمرار الدعم العسكري والمالي لإسرائيل، لافتاً إلى أن «نظام الفصل العنصري في بلده أسوأ من ذلك الذي شهدته جنوب أفريقيا على امتداد عقود»، وإلى أنه «يرفض حل الدولتين، ويرى أن الحل الأمثل للصراع في منطقة الشرق الأوسط يتمثل في حل الدولة الواحدة».[٢]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المخرج هو ابن الناشطة السابقة في حزب «ميرتس» الإسرائيلي اليساري شلوميت ألوني. وقد وصفت الصحافة الإسرائيلية فيلمه «مفرق ٤٥»، بـ«الفاجعة» لأنه يظهر الحكومة الإسرائيلية، والمجتمع الإسرائيلي عنصريين تجاه العرب في إسرائيل.[٣]

وفي جملة لافتة على لسان كريم الشخصية المحورية للفيلم قال فيها «أغانيّ ليست سياسية بل هي انعكاس للمكان والواقع الذي جاء منه»، وهي تلخص رسالة الفيلم الذي يمكن إدراجه في إطار «الأفلام الموسيقية»، في حين أدرجه آخرون في إطار «أفلام الصراعات»، فيما وصفه فريق ثالث بـ«الفيلم الإنساني»، وهو الفيلم الذي لا يغلف منطلق حالة الصراع، أي النكبة، وهو ما انعكس في حوارات كريم ومنار، وفي مشاهد العنف الصادمة لمن يشاهد الفيلم، فهي تبدو لمن لا يتعمق في التفاصيل خارجة عن السياق الدرامي لصيرورته، لكنها في واقع الحال انعكاس لحالة العنف التي يعيشها الفلسطيني الباقي في أرضه، وأبناؤه، وأحفاده، وهي حالة باتت تتسيد الموقف في السنوات الأخيرة مع نزوح المجتمع الإسرائيلي، الذي أفرز قيادة يمينية متطرفة، إلى مزيد من التطرف ضد كل من وما هو فلسطيني، حتى أولئك الذين باتوا بعد احتلال أرضهم، وإصرارهم على عدم الهجرة، «مواطنين إسرائيليين».

ويعتبر ألوني من أبرز النشطاء السياسيين بين المخرجين الإسرائيليين، بل إن البعض اعتبره الأبرز بينهم على مر العصور، فالمخرج المولود في العام ١٩٥٩ في تل أبيب، مستشار لمنظمة «صوت يهودي من أجل السلام» في الولايات المتحدة الأميركية، وتعرف بالعبرية باسم «كول يهودي لا شالوم».[٤]

وبالعودة إلى الفيلم، يمكن الإشارة إلى أن نقطة التحول الأولى كانت بمقتل والد كريم وإصابة والدته بالشلل في حادث سير، ليغرق إثر ذلك وعدد من أصدقائه في عالم المخدرات، قبل أن يجدوا أنفسهم مع الوقت في أحضان الموسيقى بدءاً من «الهيب هوب»، ومن ثم «الراب» الذي برع فيه تامر نفار، بطل الفيلم، على أرض الواقع بتقديم أغنيات تعكس واقع الفلسطينيين وتنتقد العنصرية الإسرائيلية بشدة في أغنيات راب عربية، جعلته ورفاقه في فرقة «دام راب» اللداوية، أي من مدينة اللد، وهي الموقع الأساس لتصوير الفيلم، أشهر فرقة راب فلسطينية على المستوى المحلي، بل والعالمي، وكأنه يجسد شيئاً من حكايته في «مفرق ٤٨».

وتتواصل التحولات الدرامية في الفيلم مع تعرض محبوبته منار، وهي مطربة الفرقة إلى اعتداءات من مطربي «راب» أو «رابرز» يهود، على إثر ما قدمته مع الفرقة من أغنيات وجدها من يفترض أنهم فنانون يهود «مستفزة»، فحادثة تعرض منزل صديق آخر لكريم في الفرقة للهدم بقرار من السلطات في اللد، فيقرر كل من كريم ومنار محاربة القمع والتطرف والعنصرية الممارسة ضدهم في إسرائيل بالأغنية، التي كانت سلاحهم لمحاربة السلطة الأبوية والظواهر المجتمعية السلبية التي يعيشونها في «الجيتوهات» التي باتوا يعيشون فيها، بفعل سياسات البلديات التي تحول دون

الحصول على تراخيص بناء للفلسطينيين على أراض يملكونها، أو حتى التوسع في المنازل التي تعود لأجدادهم، وباتت تضيق ذرعاً بسكانها المتكاثرين بالإنجاب الطبيعي.

ولا يمكن الحديث عن الفيلم دون إغفال شخصية ذلك اللاجئ الفلسطيني الذي يزور مدينته الأصلية (اللد)، في وقت كانت فيه الجرافات الأصلية تسابقه إلى منزله، الذي يشهد بتدميره تهشم الكثير من ذكرياته، ورائحة والديه في المكان، الذي يقرر البقاء فيه كنوع من النضال السلمي يستقطب مع الوقت المتضامنين معه من عرب ويهود وأجانب، في حين، وهنا المفارقة المضحكة المبكية، تقرر «السلطات الإسرائيلية» مصادرة المكان لصالح «متحف للتعايش».

النموذج الإسرائيلي والروح الفلسطينية

ولا يبدي ألوني أي استغراب من إصرار العديد من «مدعي» معاداة العنصرية الإسرائيلية، وخاصة من المبدعين في مجال الموسيقى، على تجاهل رواية الفلسطيني في أفلامهم، وتعاطيهم في حالة النقد التي يعدّونها «تقدمية» مع آرائهم الخاصة وآراء من هم على شاكلتهم من الإسرائيليين اليهود، متجاهلين تماماً صوت الفلسطيني، وذلك «إما نابع من انحيازهم لما يرونه شعوراً وطنياً، أو لقناعتهم بالاحتلال بشكل أو بآخر، لافتاً إلى أنه يمكن ملاحظة ذلك من مضامين أغاني الراب «الصهيونية»، على حد وصفه، هو الذي عايش الفلسطينيين طويلاً، حيث خدم في الضفة الغربية ليس كجندي في جيش الاحتلال، بل بصفته وكيلاً لبرنامج «الثقافة والعالم»، وهي الفترة التي خرج فيها بكتاب «ما الذي يريده اليهودي؟»، وتعرض لانتقادات بسببه في إسرائيل، وخاصة من قبل اليمين المتطرف.[٥]

واعترف ألوني بأن الفيلم «لا يكترث بالشخصيات الإسرائيلية، بل يركز على الفلسطينيين من مواطني إسرائيل.. اليهود الإسرائيليون ليسوا مهمين في الفيلم.. ما أثار استهجان البعض حيث تظهر معظم أفلام هوليوود تظهر اليهودي الإسرائيلي كشخصية محورية بل ورئيسية، وتسلط الضوء على معاناته حتى لو كان شريراً.. الأفلام التي يصنعها غربيون ليبراليون تصور الإسرائيلي اليهود كشخص ذي مشاعر جياشة ومرهفة، بينما يصور الفلسطيني على أنه شيء ما بلا مشاعر.. فيلمي يقلب هذه الآية، ويتعامل مع الفلسطيني الإنسان سواء داخل مجتمعه أو خارجه.. لم أسع إلى تصوير الفلسطيني في إسرائيل بالسيء أو الجيد، بقدر ما سعيت إلى الالتزام بالحقيقة فقط، ووصف الأوضاع التي يعيشونها كما هي.[٦]

فلسفة التضامن

ولألوني، الذي شارك مراراً في المسيرات الأسبوعية ضد مصادرة الأراضي الفلسطينية لصالح المستوطنات أو جدار الفصل العنصري، فلسفة خاصة في تضامنه مع فلسطين والشعب الفلسطيني، عبّر عنها بالقول «ولدت كيهودي إسرائيلي، ويهوديتي مهمة جداً بالنسبة لي، مع أنني إنسان يحترم القيم الإنسانية العالمية، ولكنني أدركت أن الإمكانية الوحيدة من أجل البقاء في إسرائيل لن تتحق إلا إذا تضامنت كلياً مع فلسطين.. لن يكون لي كيان إلا عندما يصبح الفلسطينيون متساوين معي.. من خلال فيلمي هذا (مفرق ٤٨)، أسعى إلى خلق إمكانية جديدة لوجودي.. لا أريد أن أكون ضد شعبي، ولكنني أشعر أنني عندما أناضل من أجل فلسطين فإنني أناضل في الوقت نفسه من أجل مصلحة اليهود.. الطرفان موجودان على نفس الجهة، وليسا متضادين.. أنا أنتقد إسرائيل لأنني أحب (فلسطين/إسرائيل).. أحب هذا المكان، وأحب الشعبين، وأنتقد إسرائيل لأنني أحب ديني اليهودي، ولا أقبل أن يسكتني اليمينيون، كما أنني لا أنخدع بادعاءاتهم».[٧]

فكرة سيئة وجيدة

ويرى ألوني أن فكرة فيلم «مفرق ٤٨» قد تبدو جيدة وسيئة في آن، حسب الزاوية التي ينظر فيها المرء للحكاية برمّتها، «فمن يتعاطى مع الفيلم على أنه هروب من الضوضاء ودخان السجائر نحو المشهد الكامل للراب في الثقافة الفرعية سواء للإسرائيلي أو العربي يراها جيدة.. بالنسبة لي أرى في هذا النوع من الموسيقى شيئاً من الغرابة، وربما يشاطرني الكثير من الإسرائيليين والعرب الفكرة ذاتها، وهذا ليس من باب التعالي بل الأمر يتعلق بالذائقة الشخصية.. أعترف أن بعض أغنيات الفيلم أعجبتني، والأهم أن علينا احترام حق الأفراد في اختيار الطرق التي يرونها مناسبة لتقرير مصيرهم».. «لكن من ينظر إلى الأمر على أنني إسرائيلي أعادي شعبي بانتصاري للفلسطينيين سيجد في الأمر ما هو سيء.. دقائق في السيارة تفصل ما بين العرب واليهود في إسرائيل، لكن عوالمهم بعيدة جداً عن بعضها البعض.. أعتقد أن العديد من الإسرائيليين ليست لديهم مشكلة في بناء علاقات مع جيرانهم من الفلسطينيين، لكن لم تتح لهم الفرصة لذلك.. الحقيقة أن هذه الحدود موجودة، وبعضها مرئية، وبعضها، وهي الأصعب، غير مرئية».[٨]

يتناول فيلم «الغفران» حكاية شاب يهودي أميركي في العشرين من عمره يدعى «ديفيد أدلر» ينضم لجيش الاحتلال الإسرائيلي، ليجد نفسه في مصحة عقلية إسرائيلية بنيت على أنقاض قرية فلسطينية، حيث يلتقي بأحد الناجين من المحرقة يسعى لمساعدته، عبر التواصل مع أرواح القرويين الفلسطينيين من ضحاياها.

بعيون فلسطينية

والحديث عن الفيلم «المدهش» بوصف البعض، و«المزعج» بوصف آخرين يطول، لكني وجدت أنه من المناسب أن أستعير تعبيرات فلسطينية حول الفيلم للصحافية والناقدة سماح سلام إغبارية، ومن على مدونتها، حيث قالت «دمجت العبرية في أغاني الفيلم الأولى، وذابت رويدا رويدا مع صقل هوية البطل (كريم) الوطنية الفلسطينية بيد سيدة الفيلم (منار)، فكانت أغنيته الأخيرة عربية حتى النخاع، فأراد بأغنية الخاتمة (يا ريت) ان نصير شعبا تتغزل به شاعرة بجسد راقص دون خوف بائس، وان يكتب كاتب عن الشرف بمنظور امرأة بعيدا عن الذكورية العالقة في جسد أنثى، لنتحرر جميعا من عقدة التهجير ونعود معا للوطن الضائع فينا، نكمل بعضنا بعضا ولا ندفن أحلامنا مع ضحايا الاحتلال والقمع.. لا ادري كيف أتقن اودي الوني يهودي الأصل، فلسطيني المبادئ، إخراج فيلم يعتصر من المشاهد فلسطينيا او إسرائيليا، العربي والأجنبي، مشاعر الغضب البشري المتجسد بما تفعله آلة الحرب والكبت السياسي، مقبلا وفي جعبته الفقر، والجريمة، والعنف، والمخدرات، وهدم البيوت، وكل وسائل التفكيك المجتمعي الناجعة في بقجة واحدة، وضعت أمام بيت فلسطيني قديم في مدينة اللد المنسيّة .

ألوني الفنان والمخرج

بدأ أودي ألوني مشواره الفني رسّاماً، بل وأسّس جاليري «بوغراشوف» في تل أبيب، وكان بمثابة منزل للفن المعاصر، يستضيف فعاليات ثقافية وفنية وسياسية، وفي تسعينيات القرن الماضي، بينما كان أموني يقيم في نيويورك ابتكر طريقة جديدة للإعلانات التجارية باستخدام الهياكل المعمارية الحضرية، في حين بدأ مشواره السينمائي في العام ١٩٩٦، لكنه لم يخرج بفيلمه الأول «ملاك محلي» (Local Angel) إلا في العام ٢٠٠٢، وهو فيلم وثائقي.[٩]

واشتهر ألوني بفيلمه الروائي الأول «الغفران» أو «المغفرة» (For-giveness)، من إنتاج العام ٢٠٠٦، وقد حاز على العديد من الجوائز العالمية، وهو كسابقه الوثائقي يعالج قضايا تتعلق بالصراع الإسرائيلي الفلسطيني، كما أعد فيلماً وثائقياً حول كشمير في العام ٢٠٠٨، قبل الخروج بفيلمه الأخير «مفترق ٤٨» (٢٠١٦).[١٠]

«الغفران»

يتناول فيلم «الغفران» حكاية شاب يهودي أميركي في العشرين من عمره يدعى «ديفيد أدلر» ينضم لجيش الاحتلال الإسرائيلي، ليجد نفسه في مصحة عقلية إسرائيلية بنيت على أنقاض قرية فلسطينية، حيث يلتقي بأحد الناجين من المحرقة يسعى لمساعدته، عبر التواصل مع أرواح القرويين الفلسطينيين من ضحاياها.[١١]

تأتي حكاية الفيلم بوحي من مجزرة دير ياسين التي ارتكبتها العصابات الصهيونية بحق الفلسطينيين في العام ١٩٤٨، فعلى أنقاض القرية وضحاياها الذين تختلف المراجع حول أعدادهم، أقيم مستشفى للأمراض العقلية، وقد استوحى ألوني حكاية فيلمه «المغفرة» من الأسطورة التي تقول على لسان أول الناجين من المجزرة، أن المغفرة لا تتحقق إلا بالتواصل مع أرواح الضحايا. وبطريقة «الفلاش باك» تتضح للمشاهد الآلية التي أوصلته إلى المصحة، وعلاقة شبح الطفلة الفلسطينية ابنة العشرة أعوام بحل اللغز، ليتنقل ألوني ما بين حكاية الأب المتنكر لما ارتكب في دير ياسين، والطبيب إسحق (إيزاك) الذي يفكر بحق دواد بخليط يحتوي مخدرات ليعيش ما يعتقد أنه حياة طبيعية، وما بين «ميزلمان» الناجي من المحرقة، والذي يسعى لإنقاذ ديفيد بإيصاله بروح

الطفلة الصغيرة. لكن «ميزلمان» نفسه يعلم أن الخلاص قد لا يكون عبر هذه الأسطورة بالتواصل مع أشباح القتلى من الفلسطينيين تحت أنقاض المصحة، وأنه من الممكن أن لا يحظى ديفيد، الذي يمثل جيلاً بأكمله من الإسرائيليين، بـ «المغفرة»، وأن «المصير يبدو غير قابل للتغيير». [١٢]

وفي تحليل مقتضب للفيلم، يمكن القول إن ألوني في «الغفران» يحاكم أجيالاً لا تزال تتوارث قتل الفلسطينيين لأن الأجداد والآباء رفضوا حتى أسطورة التواصل مع أشباح القتلى، لعلهم يظفرون بالصفح منهم، ولكون العقيدة الصهيونية لا تزال بعيدة عن عقدة الذنب إزاء الفلسطينيين، فالقتل مستمر، والتطرف يتفاقم، وبالتالي فإن مستقبل إسرائيل برمّته قد يكون كحال ديفيد أو داود، بما يحمله الاسم من دلالات رمزية، أي أن تكون قابعة في مصحة عقلية.

يحاكم ألوني في هذا الفيلم العقيدة الإسرائيلية التي لا تزال ترفض حبل التواصل مع ماض بشع، قامت به دولتهم التي يصوّرها الفيلم بمثابة مرتع للمجانين على أنقاض الفلسطينيين ومنازلهم وحكايتهم وعلى أنقاض أحلام كانت تداعب مخيلات الصغار منهم والكبار، فابنة العاشرة المتخيلة كشبح الخلاص للإسرائيلي القاتل، بات منها نسخ كثيرة قتلت برصاص شبان وشابات انخرطوا في جيش الاحتلال، مستعرضين «مهاراتهم» على الأجساد الفلسطينية الصغيرة في كل مكان.. وعليه فالفيلم هو محاكمة جريئة.

وكانت الملحق الثقافي في سفارة إسرائيل بالعاصمة الفرنسية باريس، نيتا مازور، في شباط من العام ٢٠٠٧، هددت بسحب الدعم عن مهرجان الفيلم الإسرائيلي في باريس، لكن إدارته قرّرت الاستمرار في نيتها عرض فيلم «الغفران» في افتتاح المهرجان الذي كان مقرراً في الحادي والعشرين من آذار العام ٢٠٠٧، وأن الفيلم كما أعلنت إدارة المهرجان عرض على عدد من المثقفين والفنانين والصحافيين الفرنسيين، الذي وافقوا على حضور حفل الافتتاح، وأن إلغاءه قد يثير عاصفة في باريس، بسبب الرقابة وتدخل الطاقم الدبلوماسي في الأنشطة الفنية لأسباب سياسية.١٣ (١٣)في ذلك الوقت تحدّثت إميلي مواتي، المتحدثة باسم المهرجان، عن الضغوطات التي تمارس من قبل السفارة الإسرائيلية ممثلة بالملحق الثقافي فيها، وعن التهديدات بسحب الدعم المقدم للمهرجان أو تقليصه حال عرض فيلم «الغفران» لألوني في العرض الافتتاحي. وأضافت أنه كان واضحاً بأن السفارة ستقاطع الحدث، مشيرة إلى أنهورد قالت في تبرير السفارة لموقفها أن الفيلم «معاد لإسرائيل، ويروج لصورة سلبية عنها، وأنه من الأفضل ألا يعرض الفيلم الذي وصفته بـ «العار».كذلك، تم الكشف عن تهديدات تلقتها إدارة المهرجان من الجالية اليهودية في فرنسا.[١٤]

عُرض الفيلم في النهاية، ولكن ليس في افتتاح المهرجان، فكان الأمر بمثابة «صدمة» للجمهور الفرنسي والجمهور اليهودي في فرنسا.لكن ألوني اعتبر ذلك مهمًا، مع أنه كان يفضل عرضه في الافتتاح خاصة في هذا المهرجان، لعل يهود فرنسا يتحولون من ارتمائهم في أحضان اليمين المتطرف الذي يعاني من «الإسلاموفوبيا»، أو يسوقهم، إلى حيث الأفكار الإنسانية التي نادت بها الثورة الفرنسية، أو لعلهم يتأثرون بأفكار جاك دريدا أو إيمانويل ليفيناس.[١٥]

ومن الجدير بالذكر أن العديد من نجوم السينما والمسرح الفلسطينيين شاركوا في فيلم «الغفران» بينهم: كلارا خوري، وربى بلال، ومكرم خوري، وتمارا منصور.

لم يغفل مخرج الفيلم وكاتب السيناريو له إدخال عنصر الرومانسية عبر علاقة شائكة تعكس تعقيد العلاقات المتراكمة عبر العقود بين الفلسطينيين ومحتليهم، من خلال حالة عشق كانت مدخلاً مهماً لنقاشات ذات علاقة بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وتشكلت في نيويورك التي اعتقد والدا ديفيد أنها ملاذ له من عقدة الذنب التي كانت ترافقه في إسرائيل. والعلاقة هنا ما بين ديفيد الإسرائيلي الأميركي، وليلي الفلسطينية الأميركية التي تعيش مع ابنتها أمل، التي تشبه الفتاة ابنة العاشرة التي قتلها. وفي هذا الكشف (قتل ديفيد لفتاة فلسطينية حين خدم لبعض الوقت في جيش الاحتلال، قبل التذرع بخلل في قواه العقلية لإنقاذه من العقاب)، صدمة غير متوقعة لكل من يشاهد الفيلم، وكأن رائحة الدم والبارود تصر أن تتسيّد المشهد حتى في خضم حالة من العشق الجارف.

أزمة أخلاقية

ويفضح ألوني بأفلامه وتصريحاته في الحوارات المختلفة معه، ما يمكن وصفه بأزمة أخلاقية يعيشها الشعب الإسرائيلي، تتمثل في حالة الإنكار إزاء الاضطهاد الذي يمارسونه منذ عقود، وهو ما يثير استغراب مخرج «مفرق ٤٨ » وغيره: كيف تتمكن عقول مرتكبي الجرم استيعاب الدلالات والمعلومات التي تؤكد هذا الجرم؟ليس فقط لا تنكره، بل تفضل الاشتراك في الاضطهاد.

وهنا لا بد من طرح تساؤلات بدأت تطرح أكاديمياً، وأخيراً سينمائياً كما في تجربة ألوني المغايرة لأي تجربة سينمائية أخرى في إسرائيل، تساؤلات من قبيل «كيف يمكن إغماض العينين أمام

كوارث كتلك التي شهدها الشعب الفلسطينيّ مثل الاستعمار الكولونيالي لفلسطين ونكبة ١٩٤٨ ، واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية العام ١٩٦٧ ،والإقصاء المثابر والبنيوي لمواطني إسرائيل الفلسطينيين؟».[١٦]

وكما لاحظت المثقفة والمخرجة الإسرائيلية أريئيلا أزولاي، مؤخراً، «تدرب الإسرائيليون اليهود من قبل النظام على ألا يحددوا هوية الكارثة»، ألا «يدركوا هم أنفسهم بأنهم أولئك الذين أوقعوا كارثة كهذه، أو أنهم مسؤولون عن نتائجها».[١٧] وأزولاي، مؤلفة ومخرجة ومنظرة في التصوير الفوتوغرافي والثقافة البصرية، وصدر لها عدة مؤلفات مع الفيلسوف الإسرائيلي عدي أوفير، منها بالعربية «نظام ليس واحداً».

ويبدو أن المجتمع الإسرائيلي اليهودي، ومن خلال الممارسات على أرض الواقع، وليست التنظيرية فحسب، تمكن من تلقيح نفسه بنجاح ضد التفكير الأخلاقي، فقلة نادرة منه تشعر بالقلق إزاء ذلك. وكأن هؤلاء لم يكتفوا ببناء جدار الفصل العنصري، بل أقاموا أيضًا جدرانا عقلية وعاطفية لحماية أنفسهم من أن يحاسبوا على أفعالهم، لذلك فالتوجه الإسرائيلي اليهودي السائد هو توجّه نحو تقليل شديد لمشاعر تأنيب الضمير، بينما ينشغل آخرون في تبرير أفعالهم. [١٨]

في هذا الصدد، يقول شلومو سفيرسكي، وهو مثقف إسرائيلي يساري وباحث في العلوم الاجتماعية أنه «منذ أيام هجرة الصهاينة الأوروبيين المبكّرة إلى فلسطين في بداية القرن العشرين حتى الوقت الحالي، تطوّرت الصهيونية باستمرار بهندسة العزل ونشر كل أنواع أجهزته؛ وعلى نحو أبرز، رسمت هذه الأجهزة خطوطَ تقسيم عِرْقي قومي بين اليهود والفلسطينيين وخطوطاً عنصرية طبقية بين الأشكناز والمزراحيم.. نتيجة لهذا، أُزيل الطموح بحياة يشترك فيها اليهود والفلسطينيون، وأزيلت معه إمكانية وجود مجتمع مجرد من العسكرة، ومن العنصر والجنس ضمن المجتمع الإسرائيلي اليهودي. كل هذا جعل من إمكانية وجود إسرائيل في المستقبل أمرا صعبا للغاية، نظرا لعدم وجود حيّز للتفكير النقدي والسعي نحو الديمقراطية الحقيقية والاستعداد للمشاركة.. [١٩]

خلاصة رحلة بحثية

وفي الرحلة البحثية هذه، والتي كما أشرت في مطلع هذا القسم منها، بأنها توطئة مهمة لمزيد من البحث، والتعمق في مزيد من التجارب السينمائية الإسرائيلية التي يمكن إدراجها في إطار ما يمكن تسميته بظاهرة المخرجين الجدد في إسرائيل، انطلقت من تجربتين حديثتين كان لهما حضورهما الطاغي كتجربتين أساسيتين (تجربة المخرج درور موريه وخاصة في فيلمه «حراس البوابة»، وتجربة المخرج بيني برونر وخاصة في فيلمه «السرقة الكبرى للكتب»)، قبل العودة في القسم الثاني إلى بدايات أو إرهاصات ظهور سينما خارج سياق الرواية الصهيونية والإسرائيلية الرسمية الدارجة في السياسة والصراع والأيديولوجيا وغيرها، وخاصة تجربة المخرج رام ليفي صاحب فيلم «خربة خزعة».

أما القسم الثالث فسلط الضوء على تجربة ذات حضور لافت في سياق المخرجين الإسرائيليين المناهضين للاحتلال، وأعني هنا عاموس صاحب ثلاثيات «الوادي»، و«البيت»، و«التحرر»، و«أنا عربية»، وغيرها من الأفلام، في حين تناول القسم الرابع من سلسلة الدراسات الموسومة بـ«المخرجون الجدد في إسرائيل: كشف المستور»، تجربة المخرجة الإسرائيلية الفرنسية سيمون بيتون، ذات الأصول المغربية، صاحبة رائعة «الجدار»، والفيلم النادر مع الشاعر محمود درويش «الأرض تورث كاللغة»، وكذلك فيلم «راشيل»، و«بن بركة»، وغيرها، لأختم بالحديث عن تجربة المخرج أودي ألوني، وخاصة فيلمه «الغفران»، و«مفرق ٤٨ »، الفائز مؤخراً بجائزة الجمهور في مهرجان برلين السينمائي ٢٠١٦، لأواصل البحث في تجارب لا تقل أهمية عن سابقيها من بينها المنجزات السينمائية لعدد من المخرجين والمخرجات الإسرائيليات «الجدد»، مثل: ناداف لابيد، ويادين كادايا، وشلومو الكابانتز، ورعنان الكسندروفيتش، وغاي دافيدي، وإيال سيغال، والقائمة تطول ممن صنعوا أفلاماً أقل ما يمكن وصفها به بأنها «سببت صداعاً لإسرائيل»، فحين سئل ذات مرة المخرج الإسرائيلي مناحيم جولان عن الفائدة التي حققتها أفلامه لإسرائيل والصهيونية، أجاب «أعتقد أنني حققت انتصارات لصالح إسرائيل دون معارك»، وهذا يحيلنا للقول بأن أفلام المخرجين الجدد قد تحقق خسائر ما لإسرائيل دون معارك أيضاً.

الهوامش

١ خبر بعنوان «مخرج إسرائيلي: حكومة نتنياهو فاشية»، وكالة الصحافة الفلسطينية (صفا)، ٢٤ شباط ٢٠١٦

٢ خبر بعنوان «فيلم إسرائيلي مناهض للتمييز ضد العرب يفوز بجائزة تروبيكانا»، الموقع الالكتروني لصيحفة هآرتس الإسرائيلية باللغة الإنكليزية، ٢٤ نيسان ٢٠١٦

٣ المصدر نفسه

٤ مارتن ليجينيو، «مقابلة مع أودي ألوني» بالإنكليزية، موقع «Flyingstone» الالكتروني، ٢٦ شباط ٢٠١٦

٥ المصدر نفسه

٦ تقرير بعنوان «أودي ألوني: فيلمي يتحدث عن معاناة الفلسطينيين ودفاعي عنهم لا يتعارض مع هويتي»، موقع «برلمان.كوم» الالكتروني، نقلاً عن «دوتشي فيليه»، ٢١ شباط ٢٠١٦.

٧ المصدر نفسه

٨ مارتن ليجينيو، مصدر سبق ذكره

٩ موقع (IMDB) الالكتروني المتخصص بالسينما، صفحة المخرج والكاتب أودي ألوني

١٠ المصدر نفسه.

١١ موقع (mariborchan.si) الصفحة الخاصة بفيلم مغفرة لأودي ألوني

١٢ موقع (IMDB) الالكتروني المتخصص بالسينما، صفحة فيلم «المغفرة» (Forgivness).

١٣ ميراف يوديلوفيتش، مقال بعنوان «السفارة الإسرائيلية في مواجهة المغفرة»، صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، ٢٨ شباط ٢٠٠٧

١٤ المصدر نفسه

١٥ ميراف يوديلوفيتش، ذات المصدر

١٦ مارسيلو سفيرسكي، «ما بعد إسرائيل: نحو تحول ثقافي»، منشورات المتوسط، إيطاليا، ٢٠١٦

١٧ مارسيلو سفيرسكي، مصدر سبق ذكره

18 Azoulay,A. (2011) “Declaring the state of Israel: declaring a state os war”.

١٩ محمد الحمامصي، مقال بعنوان «دفع إسرائيل للتحول إلى كيان غير عسكري دون جدوى»، صحيفة العرب اللندنية، ٢٣ أيار ٢٠١٦.